

علم جديد : علم الرموز *

بقلم

الدكتور إدوار مورويسير

أستاذ الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

١

للإحاطة بأهمية ودلالة علم الرموز (السيميوتيك) ، ونقصد به النظرية العامة للرموز ، لا غنى لنا قبل كل شيء عن الرجوع به إلى بدايته ، وهى بداية منطقية . والحق أن علم الرموز ليس مجرد توسع فى الدراسات التى عُرفت فى بداية القرن الحالى باسم علم اللغة العام ؛ ولكنه ينتظم فى سلك المباحث النقدية التى يتابعها المنطقة منذ عام ١٨٥٠ حول اللغة ، بنائها وقوانينها .

إن المنطق هو بالضرورة نظرية فى العلم . ولقد أصبح المنطق عند مدرسة فينا والمدارس النجاعة لها - وخاصة مدرسة فرسوفيا - نظرية فى العلم باعتباره لغة . هذه اللغة ذات تنظيم مجرد (سينتاكس) ينتظمها ويوجهها ويتميز تميزاً تاماً من التنظيمات الخاصة بلغة من اللغات المكتوبة أو الملفوظة داخل مجموعة اجتماعية معينة . وهكذا تكون مهمة المنطق أن يكشف عن هذا التنظيم المجرد المؤلف من قواعد عامة . وهذه القواعد تنقسم إلى قواعد صياغة تشرف على ائتلاف الألفاظ فى صورة قضايا ، وقواعد تحويل وهى تصل بين القضايا بروابط كما تؤلف عالم المقال . ثم إن القضايا هى نفسها على ضروب أربع ممكنة : تحليلية وصادقة ، متناقضة وباطلة ، تجريبية وصادقة ، تجريبية وباطلة . فالقضايا التحليلية ، أو بعبارة أخرى القضايا التوتولوجية أو « الصادقة أيا كان مضمونها » هى الروابط القبلية التى يشتقها التنظيم المجرد ومجالها الخاص هو المنطق والرياضيات . وكل قضية تركيبية ، أعنى كل قضية لا تكون صورية خالصة ، فهى تجريبية ،

* ترجمة المقال المنشور فى مجلة علم النفس . مجلد ٧ - عدد ١ .

كما أن فيها على الدوام إحالة على موقف أو وضع معين للأشياء . وصفوة القول إن العلم تآزر بين قضايا تحليلية وأخرى تجريبية . وبعبارة أدق المنطق الرياضى الذى يأتلف على هيئة عالم من الرموز خارج الواقع يقدم « أدوات لمعالجة » القضايا التجريبية . ونظرية القضايا التحليلية هى كما يقول كارناب صياغة للأساليب التنظيمية الممكنة .

إن النظرية المنطقية للغة هى كذلك نظرية فى الصدق من حيث هو قيمة لهذه اللغة . وسيكون ثمة صدق صورى وصدق تقريرى وذلك بمقتضى التصنيف السابق للقضايا . والمعيار العام للصدق هو « الوضوح » . فوضوح القضايا التحليلية يأتى نتيجة لتماسك سياق استنباطى يبدأ من تعريفات بالمصادرة . ووضوح القضايا التجريبية حاصل عن عمليات تثبت . ولنكن على يقين من أننا لسنا بصدد تثبت من قضية شرطية عن طريق التجربة ، ولكن الأمر كما أكدته « كارناب » تأكيداً قوياً فى المؤتمر الدولى لفلسفة العلوم لعام ١٩٣٥ ، يتعلق بالمضاهاة التبادلية بين القضايا التجريبية : وإذن فلا وجه للمقارنة بين قضية وواقعة ، لإننا نقارن بين شيئين لا تربطهما صلة بعالم واحد بعينه ! وعندما يدور حديثنا — وما أكثر ما نفعل ذلك — حول التثبت من قضية بواسطة واقعة ، فإننا نخلط بين عمليتين : إحداهما هى صياغة ملاحظة ، والأخرى مضاهاة بين قضايا تجريبية استقيت من ملاحظات متنوعة .

والخلاصة أن النظرية المنطقية للغة على نحو ما تبدو من خلال المؤلفات الأولى لمدرستى فينا وفرسوفيا قد انتهت إلى النتائج التالية : اللغة الصادقة أو العلم هو مجموع مؤلف من قضايا تحليلية مشتملة على قضايا تجريبية ؛ ويكون هذا المجموع واضحاً للفكر على شريطة أن يُراعى معيارا الصدق ألا وهما الإحكام والتثبت ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المجموع وإن اشتمل على حدود متنافرة فى الظاهر ودالة على عوالم تخص علوم الفيزيقا والحياة والاجتماع والنفس فيمكن فى نهاية الأمر أن يوحد داخل صنف موحد متجانس من الحدود الخاصة بلغة الفيزيقا الموضوعية .

تلك هى أولى المراحل الكبرى التى أدت إلى فكرة نظرية عامة للرموز .

ولقد أدخلت التحسينات على الاشكال السالف الذكر وعلى نتائجه من ناحيتين : من نقد باطنى تناول النظرية المنطقية للغة ، ومن مجهود انصرف إلى إقامة علم نفس وضعى وموضوعى للغات : ومن ثم فقد ازداد الشعور بالصلة الوثيقة التى قربت بين المناطقة الصوريين وبين علماء النفس السلوكيين .

ولقد كان من تأثير مدرسة فرسوفيا ، وعلى الأخص كوتاربنسكى وتارسكى ، أن اكتشف المناطقة منذ عشرين عاماً أن التنظيم المنطقى لم يكن سوى فرع واحد من علم شامل للرموز . ولقد استعاروا من « تشارلز موريس » كلمة « سيميوتيك » للدلالة على علم الرموز هذا ، كما شرعوا يحكمون أساس التصورات الرئيسية للنظام الحديد وسرعان ما وجدوا أنفسهم وقد اشتبكوا فى صراع له أثره مع علماء النفس الذين راحوا بدورهم يطالبون بأن لهم وحدهم حق دراسة الرموز دراسة موضوعية .

وهاك أولاً منهج العمل كما أثبتته المناطقة ، تجد له عرضاً رائعاً فى كتاب « كارناب » : « مدخل إلى علم الدلالة » (١٩٤٢) - فالرموز يجب أن تنقسم إلى مجموعتين : الرموز المعرفية ووظيفتها الاخبار ، والرموز اللامعرفية ، ذات المنشأ الانفعالى ، ووظيفتها الاستدعاء . وسيقصر المنطق بحوثه على المجموعة الأولى وحدها ، أما الأخرى فتروكة لعالم النفس - ويؤدى التحليل الموضوعى للرمز المعرفى إلى النتائج التالية : نقوم بملاحظة كائن حى ، وليكن إنساناً ، يحدث صوتاً ، أو تصدر عنه إشارة أو يقوم بأية عملية أخرى بطريقة تفيد معرفة بموقف أو موضوع ما - مثال كهذا يمكن تحليله كما يلى : كائن تصدر عنه الرموز ، ومظهر رمزى (سيميوتيكى) معتبر فى ذاته - أى الرمز بعينه - ، ثم عملية دلالة تربط الرمز بحادث معين . ومن هذا تشتق بسهولة الأقسام الثلاثة الكبرى لعلم الرموز : القسم الخاص بالتنظيم وهو يتناول الرمز أو مجموعة من الرموز بالدراسة بعد تجريدها من عمليات الدلالة ومن حضور الكائن المحدث للرموز ؛ وهذا القسم الأول من علم الرموز ينقسم بدوره إلى قسمين : أحدهما وصفى يعالج التنظيمات ذات الوجود التاريخى ، والآخر مجرد منطقى وهو تحليل لقواعد الصياغة

والاشتقاق في لغة من اللغات ؛ وما برحت النزعة الصورية المنطقية بنوع خاص تُعنى بالكشف عنه — ويأتى بعد ذلك القسم الخاص بعلم الدلالة (السيانتيك) وهو يضع القيمة الدلالية للرموز موضع الاعتبار ، غير أنه يصرف النظر عن اشتراك الذات ومن ثمّ فهو لا يحسب حساباً للأرجاع الشخصية الانفعالية الناشئة عن إصدار الرموز أو تلقيها . والقسم الخاص بعلم الدلالة ، مثله مثل القسم الخاص بالتنظيم (السينتاكس) يتضمن قسماً وصفيّاً هو من شأن عالم اللغة ، كما يشتمل على قسم مجرد يعين شروط الدلالة وقواعدها داخل نسق من الرموز ، مما يدخل في عمل المنطق . أما القسم الأخير وهو القسم العملي فستدور أبحاثه حول عملية التفاعلات المركبة التي ستجرى بين شخص واحد أو جملة أشخاص وبين الرموز : مثال ذلك أن فحص العمليات التي ينتهجها العلماء لتدوين نتائج التجارب وإذاعتها سوف ينبع من القسم العملي . ويرى « كارناب » ، وقد جاره المناطقه الصوريون في رأيه هذا ، أن القسم العملي لن يشمل غير قسم واحد وأنه سيظل وصفيّاً خالصاً : فيدخل في دائرته حل المشاكل الفسيولوجية والاثولوجية والنفسية والنفسية الاجتماعية ، ولن يكون باستطاعته أبداً أن ينتظم في صورة نظرية مجردة وصورية تدور حول العلاقة بين شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص وبين رموز ذات قدرة على الدلالة .

والوضع الراهن للأبحاث يفيد بأن كثيراً من المسائل التي تغلب على الأقسام الوصفية من الفروع الثلاثة لعلم الرموز قد سبق أن عالجتها علوم اللغة والنفس وعلم النفس الاجتماعي بوجه خاص . ولقد حان الوقت الذي ينبغي أن تحشد فيه هذه النتائج بطريقة توفر لمن يجد من الباحثين سجلاً موحداً وأساساً وطيداً يبدأون منه أبحاثهم . ولقد أخذ تشارلز موريس على عاتقه أن يقوم بهذا التأليف الأول — غير أنه ينبغي علينا قبل أن نتعرض لتقديم مؤلفاته أن نتناول الأمر فيما يتعلق بالمناطق التي احتفظوا لأنفسهم بحق تكوين علم مجرد للرموز . فالتنظيم المجرد يقابل الدراسات التي كان يعالجها المنطق الصوري منذ قرن من الزمان من حيث أنه يقتصر على حساب القضايا ، ونظرية الدوال القضائية ، وتحليل أشكال الاستنباط ، ومنطق الروابط . ونجد في كتاب كارناب الذي أشرنا إليه تنوياً بالتعديلات التي أضافها البحث الدلالي إلى التنظيم المنطقي القديم للغة (والواقع أن هذا التنظيم قد خلط بين قسمي التنظيم والدلالة بأن جعل منهما

شيئاً واحداً .) وما زال علم الدلالة المجرد يتعثر في خطواته الأولى ، فهو لم ينته بعد إلى صياغة تصوراته ومسائله الرئيسية في صورة واضحة . ولقد نشر كارناب في عام ١٩٤٧ بعد كتابه « المدخل » . . دراسة جديدة جعل عنوانها « المعنى والضرورة » عكف فيها على فحص فكرتي الصنف والخاصية بأن طبق عليها منهجاً تحليلياً جديداً يطلق عليه منهج الماصدق والمفهوم . ومن الخير أن نخيل القارئ إلى مقالات عديدة لعالم المنطق الأمريكي ه . ب . كرى وخاصة مقالاته : « اللغات والنسق الصوري » (ضمن نشرات المؤتمر الدولي العاشر للفلسفة) ؛ « اللغة وما بعد اللغات والنسق الصوري » (مجلة المنطق الرمزي) ؛ « علم الدلالة » (مؤتمر فلسفة العلوم ، باريس سنة ١٩٤٩) . ومن العسير أن نصدر حكماً نهائياً على هذه الكتابات التمهيدية ولكن ثمة حقيقة لا جدال فيها : ذلك أنها تقدم لنا من جديد اهتمامات ومسائل عابجها المنطق التقليدي والمنطق المعاصر على السواء ، — وهي اهتمامات اعتقد كارناب وتلاميذته منذ عشرين عاماً أنها لم تنضج بعد ؛ إن نظرية تبحث في دلالة نسق من الرموز لا بد أن ترتبط بنظرية في المقولات أو بالمنطق الشارط (الترنسندنتالي) أو منطق جدليّ (دياكتيكيّ) . ولكن ليس لنا أن نذهب بعيداً في تفاؤلنا . فالتصورات القديمة تبدو على الدوام في ثوب جديد بعد أن يتم تكاملها في طريقة جديدة تضع مسائل هذه التصورات وضعاً جديداً .

٣

وأما من جانب علم النفس فقد كانت النتائج حاسمة ، ولقد برهن علم الرموز (السيميوتيك) على أنه جاء تحقيقاً لمطلب ملح من مطالب العلم . وكتابا تشارلز موريس « أسس نظرية الرموز » (شيكاغو ، ١٩٣٨) — و « الرموز واللغة والسلوك » (نيويورك ، ١٩٤٦) يضمنان بين دفتيهما أهم ما بذل من جهود من أجل استخلاص وتصنيف الأفكار الأساسية لعلم الرموز — بديها هو التعريف الموضوعي للرمز : إذا كانت منها تمهيداً من طبيعته أنه ، في غيبة الموضوعات المنبهة التي تحدث سلسلة من الاستجابات تنتمي إلى أسرة سلوكية معينة ، يثير لدى الكائن الحي استعداداً للاستجابة بسلسلة من الاستجابات

المتوافقة مع هذه الأسرة السلوكية — عندئذ تكون ا رمزاً ؛ ففي تجربة كتجربة بافلوف الشهيرة تكون ا هي الجرس . — ولنشرع الآن في تحليل الرمز .

الدلالة : هي ما يطلق على مجموع الشروط التي بمقتضاها يكون للرمز قدرة على الإبانة — والمدلول هو « ذلك الشيء » الذي يعمل على تنمية سلسلة من الاستجابات استعدت لها كائن معين وضع موضع الاختبار : ففي حالة الكلب في تجربة بافلوف نجد أن الطعام هو مدلول للصوت الذي هو عبارة عن الرمز المشير للجرس . واللغة ، من بين الرموز ، هي مجموعة من رموز كثيرة الأبعاد يشترك فيها أفراد أسرة معينة ، ويحدثها أعضاء هذه الأسرة وهي تأتلف فيما بينها بطريقة تؤدي إلى تكوين رموز مركبة ؛ وهذه التأليفات من الرموز تخضع لقوانين صارمة ، كما أن هذا الطابع التأليفي هو الذي يميز لغة الإنسان عن لغة الحيوان .

ورموز اللغة الإنسانية ، فيما يرى موريس ، يمكن اعتبارها من وجهتين : وجهة دلالتها ووجهة استعمالها . واجتماع وجهتي النظر هاتين يتيح لنا تحديد « نماذج من القول » أو لغات مخصوصة توجد أحياناً في صورة مجردة وتكون نتيجة لذلك وحدة رمزية (سيميوتيكية) أصيلة ، ولكنها قد توجد كذلك داخلية في لغة الحياة اليومية حيث تكاد تتمتع في وقت واحد أشد الدلالات والاستعمالات تبايناً .. ومن ثم فإن تصنيف اللغات إنما يراد به تطهير اللغة الشائعة التي تُشتق منها نماذج بسيطة وموحدة من رموز يجرى استعمالها بين الناس . ويقترح موريس ضم مزايا التصنيفات التي تستند أحياناً على الاختلاف في دلالة الرموز وأحياناً أخرى على تباين أوجه استعمالها . ومرد هذا إلى التسليم بأن لكل لغة نمطاً سائداً من الدلالة وأن لها في نفس الوقت وظيفة أولية بالقياس إلى استعمالها . ولكل رمز أربعة أنماط ممكنة من الدلالة : الإشاري ، والتذوقي ، والتعيني ، والصوري . وينفذ تحليل موريس دائماً إلى صميم العلاقة بين الفرد والبيئة ، وهي أنماط التخطيط الرئيسى لعلم الرموز . فقد تشير كلمات امرىء يحادثنا إلى وضع معين للطريق الذي علينا أن نجتازه ؛ وقد تعمد هذه الكلمات إلى ذلك الوضع فتقدره على أنه عقبة بالقياس إلى قصدنا من بلوغ نقطة محددة من هذا الطريق ، ثم إن الرموز يمكن أن تعين لنا مسلكاً خاصاً لمواجهة هذه العقبة ؛ قد يكون هذا المسلك تغييراً في دليل سفرنا مثلاً . في حالة الشكل التخطيطي « كلب — جرس — طعام » « يشير » صوت الجرس إلى الطعام الموجود في مكان معين ، وهو بعدُ « يقدر »

هذا الطعام باعتبار أنه متعلق بالجوع ، وهو « يعين » فعل — استجابة . —
 بيد أن اللغة الإنسانية تشتمل كذلك على « رموز منطقية » معروفة باسم « الرموز
 الصورية » ؛ مثال ذلك « أو » ، « و » ، « لو » ، « فعل الكينونة » ، « + » —
 مثال ذلك أيضاً اللاحق suffixes والرموز النحوية ، وعمليات الوقف . . . الخ
 ولهذه الرموز في كل لغة من اللغات المركبة وظيفة دلالة تامة التحديد تتميز عن
 الأنماط الثلاث الأخرى تميزاً تاماً . فلنا إذا أن نتحدث عن نمط صوري من
 الرموز أو بعبارة أخرى عن رموز « مشكّلة » (كما يقول موريس) . ولا عبء
 هنا باللفظ المختار للتعبير عن هذا النمط الجديد من الدلالة ، فأخطر من ذلك
 إدراك أصالته .

ويقابل الأنماط الأربع من الدلالة أربعة ضروب من الاستعمال . فالوظيفة
 العملية للرموز هي وظيفة ضبط أو تحكم في السلوك . ولكي يبلغ هذا الهدف ،
 يتعين على الكائن الحيّ قبل كل شيء — والإنسان بصفة خاصة — أن يحسب
 حساب البيئة التي سيتخذها مجالا لفعله ، كما أن عليه بعد ذلك أن يتخير بضع
 خصائص مميزة لهذه البيئة ، وأن يستبصر بالاستجابات التي تسمح بالوفاء بحاجاته
 الخاصة ، ثم إن عليه أخيراً أن ينظم مجموع هذه الاستجابات جهد طاقته
 داخل إطار أو شكل متماسك موحد . وإذن فقد تبين مباشرة كيف أن هذه الوجوه
 المتعددة لتكيف الفرد مع بيئة معينة يمكن تيسيرها بإشراك الرموز التي سيكون
 لها حينئذ وظيفة استعمال خاصة بكل ضرورة من ضرورات التكيف
 الأربعة على حدة . وسيترتب على ذلك أن تستخلص الاستعمالات الأربع للرمز
 بسهولة — فالرمز يمكن أن يفيد في التعريف بالبيئة التي على المرء أن يتمّ فيها
 فعله ، — وأن ييسر عليه سبيل الاختيار ، — وأن يثير من بين الاستجابات
 أكثرها نفعاً ، — وأخيراً فإن في مقدوره أن يؤلف بين مجموعة الرموز السابقة
 في كل رمزي مجمل . ويشير موريسير إلى هذه الاستعمالات الأربع بالمصطلحات
 التالية نذكرها بترتيب التعريفات السابقة : فالرمز قد يقال عنه إنه إخباري ،
 أو تقويمي ، أو استشاري ، أو اتساق .

وبحسبنا الآن أن نعلم إلى لوحة ذات مدخلين فنجد بين أيدينا ست عشرة
 إمكانية لغوية ، كل منها محددة تماماً في دلالتها ووظيفتها . — لا جرم أن يتعجب
 عقل له حظ من النقد إذ يلمس مثل هذا التوافق بين نمط الرموز واستعماله :

ففي كل طرف أربعة منها على التحديد : أليس في الأمر ما يحمل على الظن بأنه مفتعل ؟ ألا ينبىء عن الطابع الشكلي للتصنيف ؟ إن المرء يبدأ بداية قبلية ، إلا أنه — بطريقة تثير الدهشة — يعود فيكشف الواقع اللغوى كاملاً . لهذه الاحتراسات قيمتها وينبغى ألا تغيب عن أذهاننا . غير أن وزنها لا يبلغ أن يدفعنا إلى اطراح التصنيف الذى اقترحه موريس . بل إن الأمر على العكس من ذلك تماماً ، فإن كنا نقدمه هنا فمرجع ذلك إلى أننا نعتبر أنه يمكن أن يكون بمثابة أساس وطيد تقوم عليه تحليلات أعمق وأدق . وفضلاً عن ذلك فلا مناص للعلماء المحدثين في العلوم الإنسانية من التسليم به (أى التصنيف) : لقد انقضى زمن كان في مقدورهم أن يفاخروا فيه مزهوين بأن من حقهم وحدهم أن يراجعوا العلم الذى تخصصوا فيه ؛ هنالك تراث — وإن يكن جديداً — لا مفر من انتهاجه والسير على هداه : تلك هى الروح العلمية التى يحسن الاقتداء بها ، لا الوضعية المغلقة المقفلة . وصفوة القول إن المحاولة التى اضطلع بها موريس في مجال تصنيف اللغات ووظائف الرموز هى أوفر المحاولات التى بذلت في هذا الصدد حظاً ، وذلك لأنها أغناها بالإمكانات لمن يروق لهم أن يسلكوا هذه السبيل .

وإليك النتائج واللغات محددة عن طريق الجمع بين نمط الدلالة واستعمال

الرمز :

لغة العلم	إشارية	وإخبارية	في آن معاً
لغة الآداب	»	وتقويمية	» »
لغة القانون	»	واستشارية	» »
لغة الكونيات	»	واتساقية	» »
لغة الأساطير	تذوقية	وإخبارية	» »
لغة الشعر	»	وتقويمية	» »
لغة الأخلاق	»	واستشارية	» »
لغة النقد	»	واتساقية	» »
لغة الصناعة	تعيينية	وإخبارية	» »
لغة السياسة	»	وتقويمية	» »
لغة الدين	»	واستشارية	» »
لغة الدعاية	»	واتساقية	» »

اللغة المنطقية — الرياضية	صورية	وإخبارية	في آن معاً
لغة الخطابة	»	وتقويمية	» »
لغة النحو	»	واستارية	» »
اللغة الميتافيزيقية	»	واتساقية	» »

وكل تأويل لغوى من بين هذه التأويلات التي نلمس وجودها في اللغات المتمدنية لا ريب في أنه يفتقر إلى تعقيب مسهب مصحوب بكثير من العناية ولكن سوف أقصر في هذا المجال على ضرب بضعة أمثلة — فلغة العلم — بحسب تصنيف موريس — ثمرة الجمع بين مطلبى الإشارة والإخبار ، ومقصد العلم إلى الاختصار على النمط الإشارى من أنماط الدلالة : فالواقع أنه يستبدل بالتقديرات الكمية المبهمة كما نجدتها في اللغة الشائعة — رموزاً عددية صرفة ؛ وهو يعمل على تكوين جهاز آلى يزيد درجة الثبوت أو التحقق من القضايا كما يسمح بالتمييز — من بين قضايا معينة — بين ما يشير منها إلى موضوع وما يخلو من الإشارة . ولكي يكمل هذا العمل من الإشارة والإخبار ، يقترب العلم من لغة المنطق التي تشاركه في الاستعمال الإخبارى ، وإن كانت صورية وغير ذات إشارة وأما اللغة الميتافيزيقية فهي كما يقول موريس صورية واتساقية — ومرد ذلك إلى أن المرء كثيراً ما يخلط بينها وبين لغة الكونيات ، وهذه بدورها اتساقية إلا أنها إشارية وغير صورية . وتتصف القضية الميتافيزيقية بعموميتها الشاملة ، كما تتميز بحقيقة أخرى وهي أنه لا سبيل إلى إثباتها أو دحضها بالطرائق العلمية المألوفة . وإليك نموذجاً للقضايا الميتافيزيقية : « الشئ لا يحتمل أن يكون موجوداً ولا موجوداً في آن واحد » ، « التغير من جوهر الشر » ، « التغير شرط كل تقدم نحو الخير » . والذين يلقون بأمثال هذه العبارات يرفضون في الغالب أن يدعنوا لمزاعم العلم التي تبدو مناقضة لها ؛ بل إنهم قد يعمدون إلى تأويل هذه المزاعم تأويلاً من شأنه أن يُلأشى هذا التعارض . يكشف هذا الموقف عن نمط الميتافيزيقا واستعمالها . قضاياها ينبغي أن تعتبر بمثابة « منطّات » بالقياس إلى سائر أنواع القضايا — فالرجل الذى لا يحبذ التقلبات الاجتماعية ، والذى لا يجد في نفسه ميلاً إلى التخلخل النفسى لبعض الطباع الإنسانية ، والذى ينكر الاضطراب في جميع مظاهره ووجوهه ، سوف ينظم كل هذه الأحكام ليديرها حول العبارة التالية : « إن التغير من جوهر الشر » . هذا التنظيم اللغوى من شأنه أن يجنب مؤوليه الدهشة :

إن الميتافيزيقا هي الفن الذى يُتيح أن لا يكون ثمة تناقض مع الخبرات التى يقوى الإنسان على معاناتها . ولنذهب إلى حد التسليم بوجود مقال ميتافيزيقي يستند على تأكيدات متناقضة : إن ذلك سيكون أقصى ما يمكن أن تصل إليه لغة الميتافيزيقا من مهارة وحذق. ذلك لأن صناعة فنية قصارها أن تُعدك دائماً للتعجب والاندهاش هي نفسها خطة تهدف إلى الاستقرار فى عالم زاهر بالمفاجآت . والخلاصة أن اللغة الميتافيزيقية تضىء على المسالك الإنسانية وحدة شاملة تتجلى قبل كل شيء فى رموز هذه اللغة ، وهناك نماذج متعددة من الوحدات تناظر ثوابت سيكلوجية واجتماعية متباينة — وليس هذا التحليل الرمزى (السيميوتيكى) قضاء على الميتافيزيقا بل هو تحديد من سائر اللغات : فالأمر بين الوضوح على على أن هذه اللغة التى نحن بصدددها كامنة — على تفاوت فى القوة والضعف — وراء اللغات الأخرى ، إذ أن الصورية والاتساقية نزعتان خاصتان بحياة الرموز أيا كانت .

يتبين لنا من هذين المثالين طرافة تصنيف موريس باعتباره مرحلة تبدأ عندها تحليلات لغوية : إن الوظيفة الرئيسية لعلم الرموز اليوم لا تخرج عن محاولة تصنيف الرموز إجمالاً والرموز الإنسانية ، أو اللغات على وجه التخصيص . وجدير بنا أن نلفت الانتباه أخيراً إلى مشكلة أساسية لم يحدث إلى الآن أن عالجها علم اللغة إلا متحيزاً : ونعنى بها مشكلة الظروف الفردية أو الاجتماعية التى أدت إلى ظهور الرموز . فليس للرمز دلالة مفردة قائمة بذاتها ؛ بل إن هذه الدلالة تتصل كذلك بمحتوى : فهى أولاً مرتبطة بالتاريخ الشخصى للأفراد الذين يستخدمون هذه الرموز فيما بينهم ، وهى بعد ذلك داخلية فى صميم العلاقات التى تُنسجُ خيوطها بين الناس فى كل يوم . وتُعدُّ نظرية «جورج ميد» فى اللغة من أحصب الفروض فى هذا المجال الذى تدخل فى نطاقه علوم اللغة والنفس والاجتماع . ويمكن الاستفادة من الرجوع إلى مؤلفه : « العقل والنفس والمجتمع » (جامعة شيكاغو ، ١٩٣٤) . ومجمل القول أن علم الرموز (السيميوتيك) هو العلم الشامل للرموز ، — ولا يغير فى الأمر كثيراً أن تكون هذه الرموز ذات منشأ حيوانى أو إنسانى — أن تكون رموزاً داخلية فى لغة من اللغات أو رموزاً مجردة عنها — أن تكون صادقة أو باطلة ، صالحة أو عديمة الصلاحية ، سوية أو شاذة .

وموضوع الرمز أكثر الموضوعات أصالة وأوسعها شمولاً ؛ — هو أكثرها أصالة لأن الرمز ليس عنصراً يتألف منه نطاق محدد داخل عالم موضوعي ، على نحو ما تعين موضوعات العلوم الأخرى منطقة من العالم ، — وهو إلى جانب ذلك أوسعها شمولاً لأن غيره من العلوم ، باعتبار كل منها نسقاً من الرموز ، يدخل في نطاق السيميوتيك (علم الرموز) ويندرج بين جميع أنماط الرموز واستعمالاتها .

ولو أننا عاجلنا الأمر من وجهة النظر المعرفية (الإپستمولوجية) لقلنا إن علم الرموز يستجيب لحاجة إلى التوحيد ظاهرة في مجال متسع من العلم المعاصر ، لم تبرح حتى اليوم تلمس المركز الذي تدور حوله أبحاثها . ولقد انقضى نصف قرن من الزمان على الفلاسفة وعلماء النفس والمؤرخين والاحتماعيين وهم يجهدون في إثبات أصالتهم أمام علوم الطبيعة . ولقد أُلقيت عبارات متعددة ، فدار الحديث حول « علوم العقل » و « علوم المدنية » ، و « علوم الحضارة » ، و « نظرية القيم » . غير أن واحداً من هذه المجهودات لم يُؤد إلى بإنشاء علم يجمع بين توحيد مباحثه التي بلغت من التقارب حداً جعلها تتنازع فيما بينها بلا انقطاع ، وبين تمييزها تمييزاً واضحاً من مجموعة العلوم الطبيعية .

ولعلّ من الخطورة بمكان أن نقوم بالمماثلة في مجال كهذا يتناول تطور العلوم . ومع ذلك فنحن نجازف بالقول بأن علم الرموز ينبغي له أن يشغل مكانةً مماثلة لتلك المكانة المشهود بها اليوم لنظرية الطاقة الذرية في علوم المادة والحياة . لنسلم بأن كل علم أيّاً كانت طبيعته يتخذ له موضوعاً وجهة من النشاط ، على أن نضفي على هذه الكلمة معنىً واسعاً كل الاتساع بحيث يُقصد به المظهر الذي يتجلى به الواقع . وثم نموذجان شاملان لهذا النشاط ؛ أنواع النشاط الطبيعي وأنواع النشاط « الدلالي » حيث لا يبدو فيها الواقع على ما هو عليه ، منظوراً إليه نظرةً موضوعية . والتقابل القائم بين « الطبيعي » و « الدلالي » يجب أن يحل محل التقابل بين المادة والعقل ، أو بين « الطبيعة » و « الحضارة » .

مثل هذا التقابل مشروع بحيث يمكن اعتباره ثمرة حركة داخلية من حركات التفكير العلمي الراهن .

الترجمة بقلم : عبد الغفار مكاوي